

الفصل الثالث

مجيء العباسيين

لقد كان حكم الأمويين فترة ظلم طغياني من جانب الحكام العرب على رعاياهم من غير العرب ، وبخاصة على الموالي ، وهم الذين اعتنقوا الإسلام من أبناء الأقاليم المفتوحة . ولم يكن هؤلاء يعاملون معاملة المساوين للعرب كما تقرر مبادئ الإسلام ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة القطاين . ولم يكن ذلك يرجع بأية صورة إلى الاضطهاد الديني لأن الذين وقع الظلم عليهم كانوا من معتنقي الإسلام . ولم يكن ذلك يرجع إلى تنافر عنصري ، كالذي كان بين الساميين والآريين ، كالم يكن مرد ذلك إلى أي شيء يصدق عليه أنه شعور وطني من جانب الفرس أو بقية الشعوب المغلوبة ، ولكنه لم يكن إلا نوعاً من الإحساس الطبقي الذي يعود إلى احتقار العرب للمغلوبين ، وكراهية المغلوبين لسادتهم المتغترسين ، وهي كراهية زاد فيها اشتزاز الموالي من سوء الحكم ، وجهل العرب بتقاليد المدنية . وثمة أسباب أخرى أعانت على زيادة الإحساس بالكراهية ، ولا سيما من جانب الفرس ، وكان من بين هذه الأسباب شعور نصف ديني حتى بين الذين تحولوا إلى الإسلام ، لقد كان من عادة الفرس في القديم أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك الساسانيين (وهم من سلالة أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء كاياني ، الذين كونوا مجتمعاً مستقراً في بلاد الفرس) باعتباره

• باغ ، ؛ وذلك لقب لا يفهم منه معنى «إله» ، فهما تاما ،
ولأنما يفهم حلول الإله ، حيث توارث الروح المقدسة عن طريق
التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، وهكذا نسبوا لذلك قوى إعجازية ،
وعبدوه باعتباره مقام حضرة إلهية ، ولم ينته بالفتح الإسلامى حكم
الساسانيين وحسب ، وإنما انقرضت الأسرة كذلك . وقد بقي
الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة ، برغم اعتناقهم الإسلام ؛
فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل ،
ولكنهم لم يرحبوا بنظرية الخلافة التى لم تحمل الخليفة أكثر من شيخ
قبيلة منتخب بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان فى قبائل الصحراء ؛
وقد بدا ذلك فى نظرهم كأنه رجوع إلى البربرية البدائية . ولقد دلتنا
تجربتنا الخاصة فى تناول أمور الشعوب الشرقية على أن الأفكار التى
من هذا النوع تشتمل على الكثير مما يجب أن يؤخذ مأخذ الجد .
وإن من كانوا من رعايا الإمبراطورية الرومانية لم يكن لهم بالطبع
أى ميل إلى تأليه حكامهم ، إلا بعض الذين دخلوا فى حوزة
الإمبراطورية حديثا من العناصر الشرقية ، على احتمال .

أما من كانوا تحت الحكم الفارسى ، فقد كانوا شديدي الرغبة فى
اتباع أمير متآله . وظهر هذا فى عام ١٤١ - ١٤٢ من الهجرة فى
صورة محاولة لتأليه الخليفة من جانب فرقة غالبية من أصل فارسى
تسمى الراوندية ، ثارت حين رفض الخليفة أن يعامل معاملة الإله ،
وألقى بقادتهم فى السجن . وقد رأى أتباع هذه الفرقة وكثير من بنى
وطنهم أن الخليفة لا يكون حاكما شرعيا إذا رفض أن يعامل معاملة

الإله . ومنذ القرن الثاني الهجري إلى وقتنا الحاضر لم ينقطع سيل أدعياء النبوة الذين ادعوا أنهم آلهة ، أو الزعماء الناجحين الذين ألهمهم أتباعهم . وظهر آخر هؤلاء في الحركة البابية (١٨٤٤ - ١٨٥٢ م) ، ولو أن عقيدة تجدد الحلول أو حضور الروح المقدسة في إمامهم لا تبدو بنفس القوة في البابية المعاصرة في هذه البلاد وفي أمريكا على الأقل . وتبدو أوضح صورة لهذه الأفكار في الحركة الفارسية في جوهرها والمعروفة باسم الشيعة . وتنقسم الشيعة إلى قسمين ، يرى كل منهما أن الأنبياء المتعاقبين محصورون في ذرية علي ابن عم النبي وزوج ابنته ، وهو الوحيد الذي أعطى له حق الإمامة أو الزعامة المقدس . ويختلفان على معنى هذه الإمامة ؛ فيرى أحدهما أن عليا وذريته لهم سلطة إلهية ، والأئمة فقط هم الحكماء الشرعيون في الإسلام ، وهم هداة المعصومون ، ومن هذا القسم المعتدل من قسمي الشيعة المراكشيون (١) ومن حول صنعاء من جنوب بلاد العرب . ويدعي القسم الآخر أن شخص الإمام هو محل الروح الإلهية ، ويؤكدون أحيانا أن النبي محمداً ما كان له — إلا بالخداع — أن يتدخل ويعمل عمل الناطق الرسمي باسم الإمام المعصوم علي ، ومن هؤلاء أصحاب المذهب الرسمي للدولة الفارسية (٢) ، وينتشرون غربا في العراق وشرقا في الهند . وأشهر معتقدات الشيعة أن الأئمة اثنا عشر أولهم علي ، وآخرهم محمد المهدي المنتظر الذي تولى عند موت أبيه الإمام الحادي

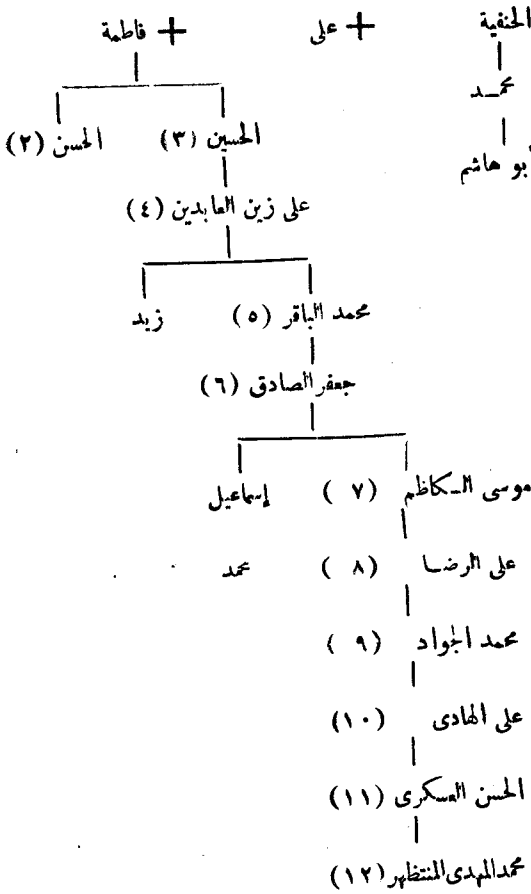
(١) المراكشيون أدارسة ومالكية .

(٢) المذهب الرسمي للدولة الإيرانية هو مذهب الإمامية ؛ ولا يدعي هذه الدعوى .

عشر الحسن العسكري عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) . ولقد اختفى محمد المنتظر فجأة بعد توليته في سمرأ التي كانت عاصمة العباسيين فيما بين ٢٢٢ و ٢٧٩ هـ ؛ ويقال إن مسجد سامراء قد بنى على قبو تحت الأرض هو الذى اختفى فيه محمد ، وهو الذى سيظهر منه مرة أخرى ليعود إلى حكمه حين يأتى الوقت المناسب ؛ وإن المكان الذى سيبحث منه لأحد البقاع المقدسة التى يزورها حجاج الشيعة . ويحكم الشاهات والأمراء فيما بين المؤمنين بالنيابة عن الإمام الخفى . ولقد حدث اختفاء محمد المنتظر بعد أكثر من قرن من سقوط الدولة الأموية ، ولكننا قدمنا الكلام عنه لنظهر الاتجاه العام لأفكار الشيعة التى سادت حتى فى أيام الأمويين ، ولا سيما فى شمال بلاد الفرس ، وكانت سببا قويا فى إثارة الثورة ضد الحكم الأموى الديوى .

ولقد علق الناس فى ذلك الوقت أهمية غريبة على التاريخ . فقد بلغ سخط الموالى غايته قرب نهاية القرن الأول الهجرى ، وقد شاع فى ذلك الوقت اعتقاد أن نهاية القرن ستشهد نهاية الظروف السائدة وبشبه ذلك ما كان الناس يتوقعون عند حلول نهاية الألف الأول الميلادى من إشراق عالم جديد . بلغ السخط حينئذ غايته ، ولا سيما فى خراسان ؛ وقد التف معظم الساخطين حول العلويين .

ويمكن لنا أن نفهم دعاوى العلويين التى كانت أقوى سبب فى سقوط الأمويين ، والتى أدت بطريق غير مباشر إلى استحضار العنصر الفارسى الذى تم نقل الثقافة الهلينية أكثر ما تم على يديه ، إذا استعنا بهذا الجدول الذى يصور نسب العلويين .



كان لعلی زوجتان ، أولاها : الحنفية التي رزق منها محمداً ، والثانية فاطمة ابنة النبي محمد ، وقد جاء له منها ولدان : الحسن والحسين . ويعتقد المتشيعون لعلی أن عليا كان ينبغي أن يخاف النبي بآله من حق إلهي ، واعتبروا الخلفاء الثلاثة الأوائل مختصين للخلافة . ولقد بدأ

الموالى الساخطون منذ عهد عثمان الخليفة الثالث ينظرون إلى على باعتباريه بطلا لهم ؛ أما هو فقد أيد حقهم في الأخوة الإسلامية بماله من روح الإسلام الأول الحقيقية . ويظهر أكثر التهييزات تطرفا عن هذه الشركة من تعاليم عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى اعتنق الإسلام وأعلن حق على الإلهى في الخلافة منذ عام ٣٢ من الهجرة . ولا يظهر أن عليا نفسه قد أعلن رأيه بهذا الوضوح ، ولكنه كان بالتأكيد يعتبر نفسه قد لحقه ضرر بهذا الاستبعاد من الخلافة . ولقد تولى على عام ٣٥ ، فأعلن ابن سبأ أنه لم يكن خليفة بحقه الإلهى وحسب ، وإنما حلت فيه روح إلهية من النبى حتى ارتفع إلى مستوى فوق الطبيعى . ورفض على نفسه هذه النظرية ، وحين استشهد عام ٤٠ من الهجرة أعلن عبد الله بن سبأ أن روحه الشهيدة قد ارتفعت إلى السماء ، وأنها ستهبط في الوقت المناسب مرة أخرى إلى الأرض : إن روحه في السحاب ، وإن صوته ليسمع في الرعد ، وإن عصاه لهى البرق .

أما الجانب الأموى تحت زعامة معاوية فلم يخضع لعلى أبدا ، ولو أنهم لم ينكروا شرعية ولايته . وبموت على أصبح معاوية الخليفة الخامس ، ولكن كان عليه أن يواجه دعاوى الحسن بن على . وتصالح الحسن ومعاوية ، ثم توفى الحسن عام ٤٩ هـ مسموما على ما يروى الرواة . أما الابن الآخر - الحسين - فقد حاول أن يصل إلى مطالبه بالقوة ، ولكنه مات ميتة محرقة عند كربلاء . وبعد موت الحسين اعترف بعض الشيعة بمحمد ، ابن على من زوجته الحنفية ، إماما رابعا للشيعة ؛ وفي الحق إنه تبرأ من هؤلاء الأنصار ، ولكن ذلك بالنسبة

لهم كان أحد التفصيلات التي لم يلقوا إليها بالا . وكان هؤلاء الأنصار يعرفون باسم الكيسانية ، ويرجع منشأ فرقهم إلى كيسان ، وهو عتيق لعل ، كوثن فرقة الأخذ بشار الحسن والحسين . وحين توفي محمد عام ٨١ من الهجرة انقسم أتباعه إلى قسمين ، أحدهما : يعترف بحقيقة موته ، ويرى الآخرون أنه اختفى ليظهر مرة أخرى في الوقت المناسب . إن فكرة اختفاء الإمام موروثه من النظريات الدينية الفارسية القديمة ، وتظهر في فترات متقطعة من تاريخ الشيعة . وأهم ما في الأمر أن الفريقتين من الكيسانية ظلّا طوال العصر الأموي يرفضان بإصرار الاعتراف بالخليفة الرسمي إلا باعتباره مفتعلاً ، ويستظران اليوم الذي يستطيعان فيه أن يثارا لاستشهاد علي وابنيه .

ولا حاجة بنا إلى التأنى عند أسرة الحسن وسلالته ، فقد ورد ذكرهم في نورات العلويين بالمدينة . وبعد إحباط إحدى هذه الثورات عام ١٦٩ هـ بعد سقوط الأمويين بوقت طويل ، هرب إدريس حفيد الحسن إلى المغرب الأقصى ، وأسس هناك دولة شيعية معتدلة في مراکش ، وهكذا يعتبر ما يأتي من تاريخ هذه الأسرة من شئون المغرب .

ويرى معظم الشيعة أن الذي خلف الحسين هو ابنه علي زين العابدين . ولم يكن الحسين كما لم يكن الحسن ابناً لعل وحسب ، وإنما كان كذلك ابناً لفاطمة بنت النبي . وللحسين بعد ذلك وراثة أخرى برهنت في النهاية على أنها أكثر أهمية من بنوته لعل أو فاطمة . فالشائع أنه تزوج ابنة آخر ملوك الفرس ، أم الأئمة ، وهذا

الزواج التقليدي بأميرة فارسية - وأدلته التاريخية مشكوك فيها -
يعتبر في نظر شيعة الفرس أهم عامل من عوامل الإمامة ، ولو أن هذا
لا يتصل بأية صورة بدين الإسلام . وإن إعطاء أهمية كبيرة كهذه
لمثل هذا الاعتبار ليوضح لنا إلى أي حد يمكن اعتبار الشيعة
في الحقيقة شيئاً غريباً غير إسلامي . وكان لعلي زين العابدين ابنان ،
أحدهما: زيد ، وثانيهما: محمد الباقر . وكان زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ،
وعلى صلة بحركته الاعتزالية ، ويعتبر غالباً من أهل النظر . حقاً إن
فرقة الشيعة كما سنرى الآن وفي كثير من الأحوال قد اختلطت كثيراً
بالتفكير الحر ، ويبدو منها في كثير من الأحوال تمسك بالفلسفة
الإغريقية . ويظهر أن الروح الموحية بالنسبة لها كانت عداوتها
لجمهور المسلمين ، استعدادها للتعاقد مع أي شيء يمكن أن يتجه منه
العيب إلى مذهب الجماعة . وكان لزيد طائفة من أتباع الذين كانت لهم
قوة في شمالي بلاد الفرس بقيت لهم حيناً من الدهر ، ولا يزال فرع
هذه الطائفة باقياً في جنوب بلاد العرب ، وهم لا يزالون يهتمون بالميل
إلى النظر العقلي . ولقد اعتبر معظم الشيعة محمداً الباقر إماماً خامساً
وجعفرأ الصادق إماماً سادساً ، وكان الأخير من المتحمسين من أتباع
« المعرفة الحديثة » ، ويقصد بهذا الفلسفة الهلينية ، ويعتبر بصورة
عامة مؤسساً ، أو على الأقل شارحاً لما يعرف باسم آراء الباطنية ، أي
تفسير القرآن تفسيراً رمزياً لا يصير معنى الوحي به هو المعنى الحرفي
للنص ، ولكنه معنى باطني . ومن هذا المعنى الباطني يمكن دائماً أن
نرى أننا قويا من آثار الفلسفة الهلينية . ولا يمكن شرح المعنى الحقيقي

للقرآن إلا بالنسبة للإمام المعصوم ، أما بالنسبة لغيره ، فإن القرآن يظل محتوما . ويبدو أن جعفرأ كان أول من ادعى من العلويين أنه كان محلا لحلول الألوهية ، ومعلما ملهما ، إذ أن أسلافه لم يذهبوا إلى أكثر من السكوت على ادعاء أتباعهم ذلك لهم ، وكثيرا ما رفضوا هذه الادعاءات .

وتوفى أبو هاشم مسموما على ما جرى به الاعتقاد ، على يدي الخليفة سليمان عام ٩٨ من الهجرة ، وقد تنازل عن حقوقه لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس أحد الهاشميين الذين كان منهم النبي وعلى ، وهم البيت المنافس للبيت الأموي . ولقد ادعى أبو هاشم أن الإمامة كانت له ، وأنه يستطيع أن يهبها لمن يشاء ، وتلك نظرة إلى الإمامة لم يقبلها المعتزون من الشيعة الذين يهتمون بالصفة الشرعية . ولما لا يبدو أن أتباع أبي هاشم كانوا من الغلاة ، على الرغم من أصلهم الكيساني . وولى عمر الثاني الخلافة عام ٩٩ من الهجرة ؛ فكان الأموي الوحيد الذي أبدى عطفًا على العلويين ، وألغى لعنة علي على المنابر وكانت جزءا من الطقوس العلنية في مسجد دمشق منذ أيام معاوية ؛ وكان يمثل نوعا من النزاهة الشخصية التي لم تعهد في خليفة أموي من قبله . ولم يستطع حكمه القصير الذي بقي ثلاث سنين أن يقضى على شرور الطغيان وفساد الحكم ، وخلفه حكام آخرون أكثر شبيها بالنوع القديم .

ومثل وفد من الشيعة بين يدي محمد بن علي الهاشمي فيما حول الأيام التي توفى فيها عمر بن عبد العزيز ، وكان محمد هذا رجلا شهيرا بالتقوى ، واستخلفه أبو هاشم بن محمد بن الحنفية رئيسا لقسم هام من أقسام

الشيعة ، وحلف الوفد على تأييده في محارلته الوصول إلى الخلافة
« لعل الله أن يحى بك العدل ويميت بك الجور ، (١) . وقد أجاب محمد
بأن هذا اليوم تحقيق الآمال والمطالب لأن قرنا من الزمان قد ولى .

إن أنصار أسرة محمد بن الحنفية الذى انتقل ولاؤهم إلى محمد بن على
كانوا فى غاية الأهمية ، لا لكثرة عددهم ، بل لجودة تنظيمهم . فقد
أنشأوا نظاما للدعاة الذين يرحلون تحت ستار التجارة ، ويسرون
بتعاليمهم فى المحادثات الخاصة ، وفى أثناء المخالطة العادية ، ثم أصبحت
هذه الطريقة معمولا بها فى كل الدعايات الإسلامية التبشيرية . وبموت
أبى هاشم وبتركتته وجد محمد بن على فى خدمته هذا العمل التبشيرى
المنظم جدا ، وكان المبعوثون على ثقة تامة من أن قبول محمد لعروض
الوفد الشيعى يعنى أنه أصبح البطل المدافع عن دعاواهم . أما الشيعة
الحسينية الأكثر تزمنا فلم يعترفوا بمطالب محمد بن الحنفية وخلفائه ،
ولكنهم عضدوا جهود محمد بن على ؛ لظنهم أنه كان يدافع عن الشيعة .

إن الدعوة لمحمد بن على يشار إليها أحيانا بأنها عباسية ؛ لأنه كان
سليلا للعباس أحد أبناء عبد المطلب الثلاثة (٢) ؛ وهو من ثم أخ لأبى
طالب أبى الإمام على ، ولعبد الله جد (٣) النبى محمد . ولقد ادعى
الدعاة فى ذلك الوقت على أى حال أنهم يؤيدون الهاشميين ، وهو
لفظ غامض ربما قصد غموضه . وقد شرح فيما بعد بأنه يدل على البيت

(١) الدورى : الأخبار الطوال .

(٢) هم ليسوا ثلاثة ؛ إذ هم العباس وأبو طالب وأبو لهب وعبد الله وحزرة .

(٣) يقصد أبى النبى صلى الله عليه وسلم

الهاشمي الذي كان البيت القرشي المنافس الذي عارض الأمويين ، وهو الذي ينتمى إليه النبي وعلى والعباس . ولكن معناه في نظر الكثيرين من الشيعة كان قاصرا على أتباع أبي هاشم حفيد الخنسية .

وتوفي محمد بن علي عام ١٢٦ هـ ، وترك أولاداً ثلاثة هم : إبراهيم وأبو العباس وأبو جعفر ، فكان أول هؤلاء يعتبر خليفة له . واشتهر في ذلك الوقت أبو مسلم الذي كان والياً على خراسان عام ١٢٦ من الهجرة . وليس واضحاً ما إذا كان أبو مسلم هذا من العرب أو من أهل العراق الوطنيين (انظر المسمودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٩ ط . دار الرجا) . حقا إن دعوى قد ادعيت أنه كان سليلاً لعنادرز أحد ملوك فارس القدماء ، وكانت خراسان في ذلك الوقت أكثر الأقاليم بغضا للأمويين ، فنشط دعاة الهاشميين فيها أكبر نشاط ، ونجحوا أكبر نجاح . وألقى أبو مسلم بنفسه في معترك هذا العمل بكل قلبه ، وبدأ في تكوين جيش مجهز بلغ بعد قليل مائتي ألف ؛ ووصل الخبر والذير إلى الخليفة مروان الثاني ، ولكنه تجاهل ذلك . حتماً إن بلاط دمشق لم يعرف ذلك أي اهتمام حتى عام ١٣٠ من الهجرة ، وبعد ذلك رفع أبو مسلم رايته السوداء معلناً بها الثورة ضد الأمويين الذين كانوا يتخذون اللون الأبيض ؛ وكل ما فعله الخليفة حينئذ أنه قبض على إبراهيم بن محمد بن علي وقتله ، وهرب الابن الآخر إلى الكوفة ، حيث آواها الشيعة وأخفوها . وإن الابن الثاني : أبا العباس الذي يعرف في التاريخ باسم السفاح قد اعترف به قائداً للهاشميين . وكان نصر أبي مسلم سريعاً وتاماً ؛ وسقطت الأسرة الأموية

١٣٢ هـ ، وقضى قضاء جزئيا على أفرادها ، وأصبح السفاح أول خلفاء العباسيين الذين أخذوا هذه التسمية من جدهم العباس بن عبد المطلب . وحالما جلس الخليفة أبو العباس على العرش جعل همه الأول أن يوطد دعائم الدولة بالقضاء على كل من يمكن أن يكون خصما لها . وكانت مقدراته التي أظهرها في إتمام ذلك هي السبب في تسميته بالسفاح . وأول ما فعله أنه طارد من استطاع أن يجهدهم من بقية الأسرة الأموية وذبحهم ، وهرب عبد الرحمن أحد هؤلاء فذهب إلى أفريقية حيث حاول أن يجمع لنفسه طائفة من الأنباغ دون جدوى ، فعبر البحر إلى أسبانيا ، حيث أنشأ لنفسه دولة في عام ١٣٨ هـ ، فحكم هو وأبناؤه من بعده حتى عام ٤٢٢ هـ . وقد ادعى هؤلاء الأمويون الأسبان أنهم الحكم الشرعيون ، ولكنهم لم يدعوا أبدا ما ادعاه العلويون من القدسية .

أما أبو مسلم الذي بذل غاية جهده في إنشاء الدولة العباسية (١) ، فقد أثار غيرة الخليفة ، وربما كان ذلك لسبب وجيه ؛ لأنه وجد أن السفاح لم يكده يرتقى العرش حتى أهمل الشيعة الذين أعانوه على رقيه ؛ وهكذا قتل أبو مسلم في السنة الأولى من الحكم العباسي (٢) . وكان سوط الأمويين نهاية طغيان الأقلية العربية كما كانت حينئذ ، وأصبح الرجحان لكفة الفرس مدة قرن كامل (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ،

(١) في الأصل : الأموية .

(٢) « وكان نثله في شعبان سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور ، وهزيمة عبد الله بن علي (المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٩ ط . دار الرجا » .

فأعيد تنظيم الحكومة على النمط الفارسي ، وكان لإنشاء منصب الوزير ، وجعله رأس الهيئة التنفيذية أثرا من آثار النفوذ الفارسي . وربما كان هذا اللقب هو نفس اللقب الفارسي القديم (Vi-chir) أى المراقب (انظر درمستاتر : دراسات إيرانية ج ١ ص ٥٨ الملاحظة الثالثة) . وكان الوزير الأكبر قبل هذا يسمى كاتبا أو مشيرا ، ولم يكن أكثر من أحد خدم الخليفة ، ويعمل في ضبط الرسائل ، أوفى النصح حين تتطلب المناسبة . وفى عام ١٣٥ من الهجرة بدأت الأسرة الفارسية النبيلة - أسرة البرامكة - تمد الدولة بالوزراء ، فضبط هؤلاء سياسة الخلافة حتى عام ١٨٩ هـ . ومنذ أيام المنصور (١٢٦ - ١٥٨ هـ) بدأ الفرس فى تدعيم غالبتهم ، ونشأت طائفة تعرف بالشعبوية (أى المضادين للعرب) بمن رأوا أن المسلمين الغرباء لم يكونوا مساوين للعرب وحسب ، بل إن العرب كانوا أمة نصف همجية ، وأنهم أدنى من غيرهم من جميع النواحي ، وأنهم أقل من الفرس والسريان والقبط . وانتجت هذه الطائفة كثيرا من الأدب الذى أثار الجدل ، لما فيه من المطاعن ضد العرب ، ولما يبدوا فيه من ازدراء هؤلاء المحدثي النعمة وكراهيتهم . وكان نثر العرب قائما بأنسابهم ، فاهتموا اهتماما كبيرا بحفظ هذه الأنساب خلال القرن الذى سبق ظهور الإسلام على الأقل . وبما أنهم لم يبدؤوا - إلا فى ذلك الوقت فى حصر نسب الآباء كان الكثير من هذه الأنساب خرافيا صرفا حين يتصل بالأسلاف الذين كانوا قبل الإسلام . وكان العرب فى الحقيقة شعبا محدث النعمة لم يخرج إلا منذ قليل من غمار البربرية (انظر لامانص : مهد الإسلام ص ١١٧) . أما الفرس

وهم لم يكونوا أقل عناية بحفظ الأنساب ، لأن نظامهم الطبقي جعلهم يهتمون كثيرا بها ، فكانوا يفخرون بأنساب أكثر صحة ، وأغل في القدم . وسواء أكان الأمر متعلقا بالأدب أو بالعلم أو بالفقه الإسلامى أو بعلم التوحيد أو حتى بدراسة النحو العربى دراسة علمية فقد تفوق الفرس تفوقا سريعا على العرب ، حتى إننا لابد أن نخترس دائما ، فنشير إلى الفلسفة العربية ، والعلم العربى ، وهلم جرا فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا إلى فلسفة العرب وعلم العرب الخ ، ونذكر أنه بالرغم من أنها عبر عنها باللغة العربية — وهى الأداة العامة فى العالم الإسلامى — لم تكن من عمل العرب إلى فى حالات قليلة جدا ، وأن الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والنحاة والمتكلمين والفقهاء الذين كتبوا باللغة العربية . وإن سقوط الأمويين ، وإحلال الفرس محل العرب كان بدءا للعهد الذهبى للأدب العربى والبحث العربى . فالأدب القديم الذى كتب بيد العرب حين لم يكونوا متأثرين بمؤثرات أجنبية يتسكون كله من شعر من إنشاء الشعراء المنقطعين للشعر ، والذين يقفنون بحياة الصحراء وحربها ، ويمكون على الأطلال ، ويفخرون بالقبيلة ، ويهجون العدو ، ويعتبر هذا نوعا خاصة ، وقد بلغ مستوى عاليا من السمو فى هذا الاتجاه . وهذا الشعر العربى القديم يعجبنا من جهات كثيرة : فهو يصب مشاهد الصحراء — وهى رائعة — ويسرى فيه تيار تحتى من الحزن الذى يعتبر صدى للصحراء . وله جانب انفعالى حقيقى شديد الإقناع ، وله فى نفس الوقت حدود فى مجال موضوعاته التى تعنيه ؛ ولا شك أن الدراسة الدقيقة لهذا الشعر العربى القديم تمهيد

ضرورى لتذوق الصور الادبية العربية الاخرى ، ومفرداتها ،
وتراكيبها ، وقد اتجهت عناية كبيرة فى السنوات الاخيرة إلى هذه
الناحية . وهذا الشعر العربى القديم الذى يظهر فيه أنه نتاج البيئة
العربية — ولكنه ربما تأثر فى الجاهلية ببعض الاتصالات الخارجية
غير المحددة — ينتهى بعد سقوط الدولة الاموية بقليل ، إلا فى أسبانيا ،
حيث بقى تحت ظل المنفيين الهاربين من بنى أمية . ولكن هذا النوع
من الشعر فى الحقيقة خارج عن مجال بحثنا الحاضر ، إلا أن نقول إن
راوية فارسيا هو حماد بن ساهور الراوية المتوفى حوالى ١٥٦ — ١٥٩ هـ
هو الذى جمع ونشر القصائد العربية السبع القديمة المعروفة بالمعلقات ،
فبدأ بذلك ما يمكن أن يسمى المستوى الكلاسيكى للشعر القديم
والمفردات القديمة . فلما استولى العباسيون على مقاليد الخلافة ،
انتهت قيادة العرب العقلية للمجتمع الإسلامى ، وانتقلت القيادة
إلى أيدي الفرس .